الحلقة (١٧)

اهتم الإسلام بالأسرة اهتماماً كبيراً وقد بدأت بالحديث في الحلقة السابقة حديثاً موجزاً مقتضباً لذلك أفضّل أن أعود مرة أخرى إلى هذه الخصيصة نظراً لأهميتها وأبسط القول فيها بعض البسط لما لها كما قلت من أهمية.

أولاً: مظاهر اهتمام الإسلام بالأسرة..

يظهر هذا الأمر من خلال أيضاُ اتفاقه مع الأسس الأساسية للنظام الاجتماعي التي أشرت إليها أو ذكرتها في بداية الحديث عن النظام الاجتماعي وأعود وأذكر بها التي هي:

١. الإيمان ٢. الفطرة ٣. السنن ٤. المصالح ٥. الإنسانية

هذه هي العناصر الأساس أو أسس المجتمع الكبير أيضاً يظهر أثرها من خلال اهتمام الإسلام ببناء الأسرة أو المجتمع الصغير.

فأساس هذه الأسرة البناء على الإيمان، لذلك يذكر الله عز وجل الزوجة بأساس هذا الزواج وهو الميثاق الغليظ، وهي كلمة الله وشرطه، فعلى أساس كلمة الله كان الاستحلال، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (**استحللتم فروجهن بكلمة الله**) وكذلك في القرآن الكريم {**قَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**} فتأسيس هذا الأمر على الإيمان يجعل الالتزام بمراقبة الله فيه وفي كل جانب من جوانبه أمراً حاضراً ومهم حتى يشعر كل طرف في هذه الأسرة بالمسؤولية، ولاسيما الطرف القائد لها والذي هو الزوج هو المسئول الأول الذي له القوامة، فيشعر بثقل المسئولية، وأنه في ذلك مسئول أمام الله عز وجل بموجب هذا العهد والشرط الذي تم بموجبه هذا الزواج، فتأسيسها على الإيمان يعطي لها أهمية كبيرة ويبين مكانتها ورعاية الإسلام لها وحرصه على أن تكون متسقة، وأن تكون مستوفية لما يحبه سبحانه وتعالى ويرضى.

- **الأمر الآخر توافقها مع الفطرة في جميع الجوانب:**

سواءً في مسألة حاجة الفطرة إلى الإشباع النفسي والجسمي، وكذلك حاجة الناس إلى الترابط و التناصر بالحق، وليس بالباطل، فالإنسان يحتاج إلى من يعينه وإلى من يأنس به وإلى آخر ذلك، فهذا الزواج هو السبيل إلى هذا الأمر، سواءً في داخل الأسرة الصغيرة تعاون الزوج والزوجة وتعاون الأبناء وتعاون الأخوة وتعاون الأخوات، أو الاتصال وتوثيق عرى المجتمع عن طريق النسب والمصاهرة والتراحم، لكن الإسلام قيّد هذا بأن يكون بالحق وليس بالباطل، فليس كل قريب ينصر بمجرد أنه قريب، وإنما إذا كان محقّاً أو ينصر بالحق

أيضا مما يلفت الانتباه من اهتمام الإسلام بالأسرة:

أنه فصل أحكامها: فصل أحكامها من حيث بناء الأسرة.

وكيف تبنى؟ وكيف يتم الزواج؟ وما الذي يجب في العقد؟ وما الذي يشترط فيه؟ وإلى آخره وكيف ينبغي أن تتم الحياة؟ وتفصيل الحقوق والواجبات، وتفصيل العلاقات والمسؤوليات، وتفصيل طريقة هدم الأسرة إذا اضطر الزوجان إلى هدمها أو إنهاء العلاقة، وقبل ذلك مسألة قيادة الأسرة وإحكام قيادتها والآداب التي يجب أن تتحلى بها الأسرة وغير ذلك، هناك تفصيلات كثيرة جداً نجدها في أحكام هذه الأسرة، وكيف تتوارث إذا مات أي من أطرافها، وإلى غير ذلك من التفصيلات الدقيقة والأحكام المُبيَّنة الواضحة لهذه الأسرة، مما يدل على أهميتها البالغة، وكما قلت إذا صلحت الأسر كان لها دور كبير في صلاح المجتمع، وإذا انحلت الأسر أثرت في انحلال المجتمع، فتأثير الأسر أكبر من تأثير الأفراد، الأفراد لهم تأثير ولكن تأثير الأسر أكبر، لما في الأسرة يتوفر فيها السلطة ومن التربية ومن الإعاشة والقيادة ومن غير ذلك من الأمور التي تجعلها مجتمعاً صغيراً له ثقافته الخاصة المؤثرة في بناء الفرد وفي إصلاحه، إلى غير ذلك، فهذا مظهر من مظاهر اهتمام الإسلام بالأسرة.

❖ الأمر الآخر بناؤها على أمر المساواة بين الزوج والزوجة

فـ {لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} والاختلاف إنما جاء بناءً -إذا وجد اختلاف- فهو بناءً على الميزان الأساس الذي توزن به كل جوانب الحياة، بل كل الأمور، والذي هو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين في الحكم، والتسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين في الحكم كما قال عز وجل {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ}

و{هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} فإذن المتماثلين يسوى بينهما في الحكم، والمختلفين يفرق بينهما في الحكم، هذه هي سنة الله عز وجل، لذلك اجتمع في الزوج والزوجة جوانب متفقة كان فيها التساوي، مثلاً جانب الإنسانية وجانب التساوي في العبادة ونحوها..

هناك أمور لا مجال للتفريق بين الذكر والأنثى فيها..

وهناك اختلاف بين الذكر والأنثى فهما سواء في العنصر الإنساني، وفي الخلق، وهما مختلفان في جوانب فيما أعدا له، فليس الرجل وحده كامل وليست المرأة وحدها كاملة، وإنما كل منهما مكمل للآخر، لا ينبغي أن يتفاخر أو يظن أنه كامل والمرأة ناقصة، أو أن المرأة تشعر بالدونية تشعر أنها ناقصة والرجل كامل، كلاهما مكمل للآخر، فسنة الله عز وجل بناها في هذا الكون على الزوجية، لابد للزوجية للتكامل، فهذا الاختلاف والافتراق هو لتحقيق التكامل، فوفق السنة المرأة مكملة للرجل، والرجل مكمل للمرأة ولا يمكن تفضيل أحد النوعين تفضيلاً مطلقا، وكمالاً مطلقاً، قد يكون فيه جوانب فضل في الرجل باعتبار تحمله للمشاق وقدرته على ذلك، وأمور هيأ لها، وتفضله المرأة من جانب آخر في الحنان والرقة والقابلية للتربية والصبر على الأولاد ونحوها، فهنا هي تفضل الرجل من هذا الجانب والرجل يفضلها في هذا الجانب، لذلك تفضلها في جانب رعاية تربية الأولاد والصبر على مشقتهم

ونحوها من هذه الأمور والحمل والولادة ونحوها، لما لها من فضل في هذا الجانب، كان لها تقديمها على الوالد في المقام وفي المكانة، النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه رجل وقال له من أحق الناس بحسن صحبتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك، فإذن الأم فضلت بثلاثة أمور أو ثلاث مرات قبل الرجل سبقته في هذا الجانب، لماذا؟ لأن عنصر الأمومة أساس في بناء الشخصية الإنسانية، وهي التي تعطيها الجانب العاطفي جانب الحب والحنان والرأفة والرحمة إلى آخره، هذا الجانب يظهر عند المرأة أكثر، فبالتالي هي تفضل الرجل في كونها هي مصدر العاطفة في حين مصدر الرجل العقل أكثر من هذه الناحية، ولذلك هو يتحكم في مشاعره أكثر مما تتحكم المرأة، هذا بشكل عام للجنس بشكل عام، ولكن قد نرى من أفراد النساء من يفقن الرجال، ومن أفراد الرجال من يفقن النساء حنانا ورقة وعاطفة، ليس الأمر حتميا في كل أفراد الجنس، وإنما نتكلم على العموم..

ومن هذا المنطلق كان إعطاء الرجل القوامة في الأسرة لأنه في الغالب أكثر قدرة على القيادة من المرأة، لا يعني أن من النساء من لا يحسن القيادة أكثر من الرجال قد يكون حاصل ووارد، لكن الغالب والحكم في الشريعة يأتي على الأعم الأغلب وليس على الكل، واستغراق الأفراد..

هنا إذن قلنا: بناؤها على المساواة إلا ما فيه اختلاف انطلاق الميزان الشرعي الذي هو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين،

ففرق الله عز وجل بينهما فيما افترقا وسوى فيما هما مستويين فيه، لذلك قال عز وجل {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} **فبالاختلاف كانت الدرجة وبالتساوي كانت** {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ}

فجانب التساوي روعي، وجانب الاختلاف روعي، وأعطي كل جانب حقه، وهكذا شرع الله قائم بالعدل الدقيق والميزان الذي لا يتخلف، فكلما كان الناس آخذين بهذا الشرع كلما استقامت الحياة وسعدت.

قد يفتن بعض المفتونين فيما يلاحظونه من قيم الحضارة المعاصرة، من حيث محاولة التسوية التامة بين الرجل والمرأة في كل شيء ..

ولو عرفوا حقيقة الأمر لأدركوا ما يجب، وأن الخير كل الخير فيما قضى الله به عز وجل، وليس في تجارب البشر التي هي ناقصة وقابلة للكمال شيئاً فشيئا، فهؤلاء الغربيون كانوا على حال ثم انتقلوا إلى حال، وربما لو طال بهم الزمان لعادوا إلى حال أخرى غير الحال التي عليها، والآن نلاحظ عندهم الآن بما يسمى بمبادئ الحداثة وظهور حركة الأنثوية والتمركز حول الأنثى، وأن الفرق بين الرجل والمرأة هي فروق ثقافية صنعها المجتمع، وأنه ليس ثَمَّ إلا جنس واحد، لا نقول ذكر ولانقول أنثى،

فيقولون إنما الأنثى صارت أنثى لجعل المجتمع لها أنثى، أو بالثقافة أنها هي التي وصفتها أنثى، وذاك وصفته بأنه رجل في حين أنهما سواء، فهذا خلط ومغالطة وحتى لواقع الخلق وللمحسوس، فهذه خلقت بطريقة، وهذا خلق بطريقة ولم يأتِ عبثاً من جعلهما ذكراً وأنثى.

فالنظام الكوني قائم على التكامل بين النوعيين، ولو نظرنا هناك الإيجابي والسلبي الموجب والسلب، وهكذا كل أمور الحياة، فهؤلاء الآن يتنكرون لهذا الخلق للخلق نفسه ويطرحون هذا الشيء بقوة، ويحاولون أن يفرضوه على العالم، حتى هؤلاء الغربيون ليسوا على سنة واحدة ولا مستوى واحد بلغوه، وما زالوا يغيرون ويغيرون كلما اكتشفوا شيئاً جديداً كلما انتبهوا إلى أشياء جديدة بدؤوا يغيرون، لكن العيب الذي يقعون فيه عيب التعميم والإطلاق.

أولا: حينما يصلون إلى شيء يتجاهلون الماضي وكأنما الشيء الجديد الذي انتقلوا إليه ماسحاً للماضي بأكمله، مع أن الجديد يغتني دائماً بالقديم ويكمله ويطوره إلى شيء جديد..

ثانياً : تجاهلهم للإنسانية وتجاربها واعتمادهم لتجربتهم فقط، وكأنهم كاملون، وينبغي أن يكون الناس تبعاً لهم في كل ما وصلوا إليه، هذا ما لا تقبله العقول، والإنسانية نفسها لا تقبل أن تكون تابعة ذليلة لأمة من الأمم، تتبع تجاربها وما توحي به أو تقول به، ولذلك ما زاد امتداد الثقافة الغربية عالميا ما زاد الثقافات الأخرى إلا إحياء ونماء ونشاطا ومقاومة، لماذا؟ لأنها تريد أن تفرض نموذجاً واحد أو تجربة واحدة خاصة لمجتمع معين، تريد أن تمدها على نطاق العالم بزعم الإنسانية وبدعواها، في حين أن الأساس أو ما ينبغي أن يخضع له:

أولاً : الجانب السنني الذي هو لله سبحانه وتعالى في خلقة، وما يسمونه هم القوانين الطبيعية والقوانين النفسية والاجتماعية،

الجانب الآخر: الجانب الديني الذي هو قول الله عز وجل العليم، بالبشر الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فتكامل السنن الدينية مع السنن الكونية هو الذي يمكن أن تكون فيه إسعاد الإنسانية، ولذلك لما امتد الإسلام لم يمتد لأن الناس دانوا للعرب أو تبعوا العرب لذات العرب لأن العرب في جزيرتهم وما تعبهم أحد، بل كانوا أذلة، لكن الناس دانوا لله، ولولا أن المسلمين ذهبوا ينادون الناس أن يخضعوا لوجه الله وأن يدينوا لله لا أن يدينوا لهم ولا يتبعوهم، لما تبعهم الناس وما دانوا لهم، وما استقر الإسلام في نفوس هؤلاء الناس يمنه ويسرة، ولما رضوا به، وهجروا ما كانوا عليه، فإذن اقتناع هؤلاء الناس بدين الله و اتباعهم لرضوان الله، هو الذي جعلهم يسلمون لهذا الشيء، فحين يريد مجتمع معين أن يقفز على التاريخ وأن يخضع الأمة وأن يخضع الأمم وأن يخضع الناس لتجربته الخاصة فهذا أمر غير صحيح،

ولذلك يحاولون أن يشككوا الناس في أديانهم وقيمهم، بل ويشككوا الناس في الله عز وجل وفي

أحكامه وفي شرعه الذي شرعه وفيه السعادة والخير والنماء، ويجب أن يفرق هنا بين ما هو من اجتهاد الناس واجتهادهم في فهم الدين، وبين الدين ذاته، فما كان من الدين فهو الحق الذي لا محيد عنه، ما كان من اجتهاد الناس قابل للنظر مرة أخرى، وبحسب آفاق الناس وفهمهم تتجدد الأفهام، وبحسب تجدد الوقائع تتجدد الوقائع تتجدد الأقضية والفتاوى، وهكذا

هذا أمر آخر لا يجب أن نخلط بين الثابت والمتغير:

فالثابت لا يتقادم مع الزمن، لأنه وجهه الحق الذي لا يتغير، والمتغير وجه إلى الزمن المتغير وجه إلى المتحرك المتطور، وبالتالي يعاد لاجتهاده مرة أخرى كلما استجد قضايا جديدة، وهكذا إذن لا يجب أن نخلط في الشرع بين الأمرين هذه قضية أردت أن - أو سنح الكلام فيها انطلاقا من هذه النقطة وتعقيبا عليها، بهذا أكون قد ذكرت وبينت مجال اهتمام أو مظاهر اهتمام الإسلام بالأسرة.

وأنتقل إلى جانب آخر وهو:

➔ لماذا اهتم الإسلام بالأسرة؟ أو ما مقاصده من تكوينها

أولاً: هناك أمر مهم وهو أن يكون هناك استمرار للنوع الإنساني، حتى لا ينقطع، وكيف يستمر هذا النوع؟ لا يمكن أن يستمر إلا أن يكون بطريقة صحيحة، فلو ترك الناس وأهواؤهم لم يكن هناك مثلاً أمور زواج، وإنما ظلوا أقرب للناحية الحيوانية الفوضوية بدون تنظيم وأحدث فيهم من الأمراض والبلاء والفساد والفوضوية وعدم معرفة الأنساب وغيرها، فإذن كان **الأمر الأول بقاء النوع الإنساني أمر ضروري، وهو مقصد من مقاصد الاستخلاف في الأرض،** لكن هذا المقصد لا بد أن يتحقق بناءً على أمر وهو أن يكون منظماً ومرتباً..

إذن **أن يكون بقاء النوع منظماً ومرتباً ومنتجاً إنتاجاً صحيحاً،** فهذا هو المقصد الأول من إيجاد الأسر أو من سنن الزواج الذي تتكون منه الأسر، وليس وجود الزواج كما يريد البعض أن يقول هو من أجل استغلال المرأة، ومن أجل استعمالها وإيجاد أيدي عاملة،

فنشوء الأسر نحن نعود فيه إلى كتاب الله وسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله عز وجل بين أن هذه النشأة منذ أن وجد الإنسان، النوع الإنساني على الأرض { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا }

فإذن الأسر بدأت: مع بداية الجنس الإنساني بعهد الله وميثاقه وشرطه، فهذا هو المقصد الأول من مقاصد التشريع:

أن يتم بناء أو استمرار النوع الإنساني بطريقة صحيحة سليمة دافعة للفوضى، محققة للغاية على وجه صحيح بما يحبه الله ويرضاه.